خطبة صلاة الجمعة 2/ 1/ 2025 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال، في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(قيم إنسانية – العلم)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: 161].

أخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللهِ ﷺ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ**» وفي رواية البزار: «**مَكَارِمِ الأخلاق**».

أيها الإخوة:

هذه مجموعة من الخطب تتحدث عن قيم إنسانية.

القيم هي المبادئ والمثل العليا التي يؤمن بها الناس، ويجعلونها ميزانًا يزنون به أقوالهم وأعمالهم.

وإنما سميت القيم قيماً لأن بها قِوامَ الإنسان والحياةِ الكريمة.

وإنما سميت القيم قيماً لأن الأقوال والأفعال والأشياء بها تُقَوَّم وتوزن.

وإنما سميت القيم قيماً لأنها مستقيمة لا تنحرف ومنه قوله تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ أي مستقيماً.

وإنما سميت القيم قيماً لأنها الحارسة للفطرة والراعية لإنسانية الإنسان ومنه قولنا قَيِّم المسجد، أي راعيه وحارسه.

فالقيم بها تقوم الحياة الكريمة، وبها تُقَوَّمُ الأقوال والأفعال وتوزن، وهي الحارسة للفطرة الراعية لإنسانية الإنسان، وهي المستقيمة التي لا تنحرف.

ونحن بعد أن أكرمنا الله تعالى بالفتح أحوج ما نكون لتعزيز القيمِ النبيلة والأخلاق الحميدة.

وهذه مجموعة من الخطب تعرض كل منها لقيمةٍ إنسانيةٍ، لا تظهر إنسانية الإنسان إلا بها، ولا تستقيم علاقاتنا الاجتماعية إلا بها، ولا تقوم لنا قائمة إلا بها.

تحدثت حطبة ماضـــية عن الاحترام وحديث اليوم عن العلم –قيمةٍ من القيم العليا التي بها قوام الدنيا والدين–.

عنوان خطبة اليوم: قيم إنسانية – العلم.

أيها الإخوة:

الحوسبة السحابية، الذكاء الاصطناعي، وتحليل البيانات الكبيرة، الابتكار في المناهج البحثية، النمذجة الحاسـوبية، وتقنيات التصـوير المتقدمة، تطوير اللقاحات والعلاجات، المكتبات الرقمية، الجينوم البشـري، مشاريع الطاقة المتجددة، استكشاف الفضاء.

كلها اكتشافات حديثة يتابع العلماء فيها لخدمة البشرية مصدرها الرئيس العلم.

ولقد كان للمسـلمين فيما مضـى قصـب السـبق في اكتشـاف ما ينفع البشـرية وإن لهم اليوم في ذلك نصيباً وهو مدعوون لزيادته.

أورد حاجي خليفة في كتابه الموسوم بـــ "كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون" –وهذا كتاب مَعنيٌّ بأسماء العلوم وأسماء الكتب المصـــنَّفة فيها– أورد فيه ما يزيد على ثلاثمائة علم قدَّم فيها المســـلمون أبحاثاً مبتكرة: كعلم الجراحة، وعلم الفلك، وعلم الصـــيدلة، وعلم النبات، وعلم الحيوان، وعلم الفلاحة، وعلم المعادن، وعلم الجواهر، وعلم طبخ الشربة والمعاجين، وعلم المقادير والأوزان، وعلم الهندسة، وعلم الملاحة، وعلم السباحة، وعلم تدبير المنزل... وغيرها من العلوم، فضـلاً عن العلوم الشـرعية: كعلم التفسـير، وعلم الحديث، وعلم الفقه... ونحوها.

وذكر حاجي خليفة في مقدمة كتابه شروط العلم فقال: "ومن الشروط حتَّى تكون من أهل هذا العلم: العزم والثبات على التعلُّم إلى آخر العمر، كما قيل: الطلب من المهد إلى اللحد، وقال سبحانه لحبيبه ﷺ: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ وقال: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾".

أيها الإخوة:

(التعلُّم مدى الحياة) مادة إســـلامية أصـــيلة وهي جزء من قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه: 114].

قال المفسرون: "لم يأمر الله تعالى نبيه الكريم ﷺ في قرآنه الكريم أن يطلب الزِّيادة من شيء إلا من العلم"، وما يزال الرجل عالماً ما تعَّلم، فإذا قال: إني عالم، فقد جَهِل.

ورد في القرآن الكريم ذكر العلم واشتقاقاته أكثر من ستمائة موضع، أما في كتب السنة فإنك لا تجد كتاباً جامعاً من كتب الحديث إلا وفيه كتاب للعلم، أو باب للعلم، أو فصل للعلم، ضمَّ فيه مؤلِّفه مجموعة كبيرة من أحاديث رسول الله ﷺ في فضل العلم، وفضل العالم، وفضل المتعلم، والحث على العلم..، وغير ذلك.

إنك لتعجب من كبار علمائنا يقول واحدهم وقد جاوز الثمانين: إني لأتمنى على الله أن أموت وأنا أطلب العلم.

هل أتاكم نبأ شهادة البورد؟ لقد أصبحت في بعض الدول والمجالات تُمنَح بمدة صلاحية معينة، وتتطلب تجديداً، خاصة مع التطور السريع في المهن الصحية، بينما كانت في الماضي تعتبر شهادة تخصص نهائية.

فالطبيب الذي ينال شهادة البورد في بعض البلدان لا ينالها مدى الحياة بل ينالها لمدة سنوات معدودة، فإذا مرَّت هذه السنوات يُنظَر في مدى متابعته للمستجدات في اختصاصه ليصار إلى تمديد نيله للشهادة. إنه التعلم مدى الحياة وهو جزء من قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾.

وكأني بالقوم في هذا النهج يتبعون ما أبدعه علماء الحديث –حديث سيِّدنا محمَّد ﷺ – قبل ثلاثة عشر قرناً، عندما كانوا يعطون شهادة التوثيق لراوي الحديث مؤقتةً وتمدد لدى كل اختبار.

فنحن نعلم أنه لا يُحْتَج براوي الحديث إلا أن يكون ثقة، وإن الجهة التي تصدر الحكم على رواة الحديث هم علماء الجرح والتعديل، وكان هؤلاء النُّقاد يمتحنون الراوي مرةً بعد مرة، ويعطونه على ذلك شهادة الثقة أو غيرَها، وربما قالوا فلان ثقة بإطلاق وفلان ضعيف بإطلاق وفلان كان ثقة ثم ضعف، وهو ما يسمونه الجرح النسبي والتعديل النسبي.

أيها الإخوة:

طلب العلم فريضة على كل واحد فينا، على كل مسلم ومسلمة، وتعلم العلم عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وهو الأنيس في الوحدة، والصاحب في الخلوة، وعالمٌ واحدٌ أشدُّ على الشيطان من ألف عابدٍ، «**وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ**» [أبو داوود].

أخرج الإمام الترمذي عن قيس بن كثير قال: كنتُ جالساً مع أبي الدَّرْدَاء في مسجد دِمَشْقَ، فجاءه رجل، فقال: يا أبا الدرداء، إِني جئْتُكَ من مدينَةِ الرَّسولِ ﷺ، لحديث بلغني أنك تُحَدِّثُه عن رسولِ الله ﷺ، ما جئتُ لحاجة، قال: فإِني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**مَن سَلَك طريقاً يطلبُ فيه علماً: سلك الله بِهِ طريقاً من طُرُق الجنَّة، وإن الملائكة لَتَضَعُ أَجْنِحَتها رِضىً لطالب العلم، وإن العالم لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَن في السماوات ومَن في الأرض، والحيتَانُ في جَوف الماء، وإن فَضْلَ العالم على العابد كَفضل القمر ليلة البدر على سائرِ الكواكب، وإِن العلماءَ وَرَثَةُ الأنبياء، وإن الأنبياءَ لم يُوَرِّثُوا دِيناراً ولا دِرْهماً، وَرَّثوا العلم، فمن أَخَذَهُ أخذ بِحظٍّ وَافِر**» [أبو داوود].

أيها الإخوة:

إننا نحتاج إلى طلب العلم حاجتنا إلى أنفاسنا، والشام اليوم تحتاج من أبنائها الانشغال بالعلم النافع والعمل الصالح، وإن العلم لا ينال إلا بمجاهدة النفس، ومن عَلِم وعمل وعلَّم فذاك يدعى عظيماً في ملكوت السماوات.

قال ابن حزم: "لو لم يكن من فضائل العلم إلا أنَّ الجهَّال يَهابونك ويُجلُّونك، وأنَّ العلماء يُحبُّونك ويُكرمونك، لكان ذلك سبباً لطَلَبه ووجوب الاتّصاف به، فكيف ومعلومٌ فضائله في الدُّنيا والآخرة".

أخرج ابن عبد البر بإسناده عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ، أن رسول الله ﷺ مر بمجلسين في مسجده، أحد المجلسين يدعون الله ويرغبون إليه والآخر يتعلمون الفقه ويعلمونه، فقال رسول الله ﷺ: «**كِلَا الْمَجْلِسَيْنِ عَلَى خَيْرٍ، أَحَدُهُمَا أَفْضَلُ مِنَ الْآخَرِ، أَمَا هَؤُلَاءِ فَيَدْعُونَ اللهَ وَيَرْغَبُونَ إِلَيْهِ، إِنْ شَاءَ أَعْطَاهُمْ وَإِنْ شَاءَ مَنَعَهُمْ، وَأَمَّا هَؤُلَاءِ فَيَتَعَلَّمُونَ وَيُعَلِّمُونَ الْجَاهِلَ، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا**»، ثم أقبل فجلس معهم.

والحمد لله رب العالمين